

تمهيد:

يعد مبحث التقديم والتأخير من المباحث الأساسية في علم البلاغة العربية، فهو واحد من الأركان التي يقوم عليها علم المعاني، لما له من وثيق الصلة بقصد المتكلم، وحال المخاطب والمقام الذي يلقي فيه الكلام.

تعريف التقديم والتأخير:

"التقديم لغة: مصدر الفعل (قَدَّمَ)، و (المقدم) هو الذي يتقدَّم الأشياء و يضعها في موضعها، فما استحق التقديم قدمه" ¹.

"ورد في قاموس المنجد في اللغة (قدم) أن التقديم: قدم القوم: سبقهم و قدمه: ضد أخره" ².
و قدم بين يديه، أي تقدم، قال تعالى: (لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) ³.

"التأخير لغة: ضد (التقديم)، و مؤخر كل شيء، خلاف مقدم. (أخر): تأخر - شيء: جعله بعد موضعه" ⁴.

"التقديم و التأخير اصطلاحاً: يراد بالتقديم و التأخير أن تخالف عناصر التركيب ترتيبها الأصلي في السياق، فيتقدم ما الأصل فيه أن يتأخر و يتأخر ما الأصل فيه أن يتقدم و الحاكم للترتيب الأصلي بين عنصرين يختلف إذا كان الترتيب لازماً أو غير لازم، فهو في الترتيب اللازم (الرتبة المحفوظة) حاكم الصناعي النحوي، أم في غير اللازم (الرتبة غير المحفوظة) فيكاد يكزن شيئاً غير محدد، و لكن توجد بعض الأسباب العامة التي قد تفسر الترتيب الأصلي - بنوعية - بين عنصرين، وهي مختلفة في اعتباراتها، فمنها معنوي، و منها ما اعتباره لفظي، أو صناعي" ⁵. نلاحظ من خلال هذا الكلام أنه يوجد تقديم جوازاً، و تقديم وجوباً حسب مقتضى الحال.

1 ينظر لسان العرب، مادة (قدم)

2 ينظر في المنجد في اللغة العربية، مادة (قدم)

3 الحجرات/1

4 تاريخ اللغة و صحاح العربية، أبو إسماعيل بن حماد الجوهري، ج2، ص/1480، دار الفكر، ط1، بيروت -

لبنان، 1998م

5 ينظر في لسان العرب، لابن منظور. من مادة (أخر)

أسلوب التقديم والتأخير عند النحاة:

"التقديم والتأخير ظاهرة نحوية تركيبية، درسها النحاة قبل البلاغيين، إلا أن دراستهم لم تتجاوز في الأغلب و الأعم، مستوى الصواب والخطأ، أي ما يجوز تقديمه وتأخيره، وما يجب تقديمه وتأخيره، وما يمتنع تقديمه وتأخيره، دون البحث في أسرار التقديم والتأخير البلاغية. لقد التفت النحويين إلى التقديم و التأخير منذ زمن متقدم، ففي كتاب سيبويه يشيع التقديم و التأخير في أبواب كثيرة من أبواب النحو" ¹. نلاحظ أن النحويين سبقوا البلاغيين في مسألة التقديم والتأخير.

الأسباب النحوية:

الجملة الإسمية:

"يتقدّم الخبر على المبتدأ وجوبا في أربعة مواضع هي.

1- إذا كان الخبر من الألفاظ التي لها الصدارة مثل: "أين أستاذك؟ متى الرجوع ؟ كيف الحال ؟"

2- إذا كان الخبر مقصورا على المبتدأ مثل: " ما مجيب الدعوات إلا ربّي

3- إذا كان الخبر شبه جملة والمبتدأ نكرة لا مسوغ لها مثل: " عندك إخلاصٌ، للجار حرمةٌ

4- إذا عاد عل الخبر ضمير في المبتدأ مثل: " للمجتهد جزاء عمله. في المدرسة تلاميذها يجوز أيضا أن يتقدّم الخبر على المبتدأ: إذا أعرب مخصوص نعم أوبئس مبتدأ، والجملة قبله خبر مثل: " نِعَمَ العودةُ عودتنا إلى ذلك الكتابِ ". فيجوز إعراب لفظ عودتنا مبتدأ والجملة قبله خبر مع صحّة تأخير الخبر فنقول عودتنا إلى ذلك الكتاب نِعَمَ العودة" ². من خلال هذا يتضح وجوب التقديم جوازاً.

1 ينظر في دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني ص/32-33، ط، 1998م.

2 من موقع منتديات القرآن الكريم/ أحمد سعد الدين.

الجملة الفعلية:

يتقدّم المفعول على الفاعل وجوبا في مواضع ثلاث هي:

- 1- إذا كان الفاعل محصورا بإنما مثل: إِنَّمَا هَذَبَ النَّاسَ الدِّينُ الْقَوِيمُ. أو أن يكون محصورا بإلا مثل: مَا هَذَبَ النَّاسَ إِلَّا الدِّينُ الْقَوِيمُ.
 - 2- إذا كان المفعول ضميرا متصلا، والفاعل اسماً ظاهراً مثل: كافأني والدي.
 - 3- إذا اتصل بالفاعل ضمير يعود إلى المفعول مثل: أَحَبَّ التَّلْمِيذُ أَسْتَاذَهُ. عَلَّمَ أَحْمَدُ أَخْتَهُ.
- كما يتقدّم المفعول على الفاعل جوازا عند وجود قرينة معنوية مثل: فهم الدرس موسى. أَضْنَتْ لَيْلَى الْحَمَى. أو عند وجود قرينة لفظية مثل: (عَلَّمَ موسى عيسى) (ضرب التلميذ الأستاذ)¹.

كما يتقدّم المفعول على الفعل والفاعل معا وجوبا في مواضع ثلاث هي:

- 1- إذا كان المفعول من أسماء الصدارة مثل: " أَيَّ كَلَامٍ تَتَكَلَّمُ ؟ " و " من رأيت ؟ " و " كم من متحف زرت ؟ ".
- 2- إذا كان المفعول به ضميرا منفصلا مرادا به التخصيص مثل: " إِيَّاكَ نَعْبُدُ، وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ".
- 3- إذا وقع فعل المفعول به بعد فاء الجزاء، وليس للفعل مفعول آخر مقدّم مثل قوله تعالى: " فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ " وقوله أيضا: " وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ " ². يتضح لنا أن بلاغة القرآن الكريم في التقديم و التأخير متوفر بامتياز، و ذلك أن كثيراً من المواقف قد استلزمت التأخير فيها حقّة التقديم، و العكس.

1 ينظر من موقع منتديات القرآن الكريم.

2 إعجاز القرآن الكريم ص (217)، أ.د فضل حسن عباس، سناء فضل عباس/ دار الفرقان/ الطبعة الرابعة/ 1422هـ - 2001م.

و بناء على أهمية ظاهرتي التقديم و التأخير في الدراسات النحوية و البلاغية، فقد لاقى إهتماماً كبيراً من قِبل معظم العلماء و الباحثين و الدارسين، و أول العلماء السرخ الإمام عبد القاهر الجرجاني صاحب نظرية النظم، أو كما تسمى نظرية التأليف حيث تمثل هذه النظرية أكبر إنجاز علمي في مجال النحو و البلاغة.

و لقي القارئ حيز كبير لكتاب { دلائل الإعجاز } و { أسرار البلاغة } يدرك بجلاء عظم هذين الكتابين الذي تناول فيها عبد القاهر الجرجاني كل الظواهر النحوية التي لا تكتسب قيمتها إلا إذا وُظفت في سياقات متعددة فحدها البلاغة، لذلك فإنه يمكن دراسة التقديم و التأخير كظاهرة نحوية من حيث الاعراب، و يمكن دراستها من حيث التراكيب و المعاني من حيث البلاغة.

و تشير معظم الدراسات النحوية و البلاغية و النقدية أن ظاهرتي التقديم و التأخير تشكل المركز الأساسي في معظم الدراسات لما هاتين الظاهرتين من جليل الفائدة.

"لذلك فإن التشكيل الفرعي للجملة عند عبد القاهر الجرجاني لا يخرج عن نطاق التقديم والتأخير الذي لا يحصل ارتباطاً في نظم الكلام وتأليفه، وإنما يكون عملاً مقصوداً يقتضيه غرض بلاغي أو داع فني أو بعد نفسي، والحذف الذي يعده ظاهرة اجتماعية كثيرة الاستعمال عند العرب لتعبر عن أغراضهم ومدى تقننهم في استخدام اللغة لتكون رائعة متجاوزة حدود التواصل، فالحذف له مزايا لا يدركها إلا من تمارس اللغة وامتلك ناصيتها واستطاع أن يقف على مواطن الحذف ليكتشف أن أسباب الحسن والمزية في الحذف بدل الذكر"². من خلال ما سبق نلاحظ أن النحو والبلاغة لا ينفصلان، بل إنه جعل النحو في خدمة البلاغة مخالفاً بذلك سنن السابقين في نظرهم إلى النحو.

1 ينظر من موقع منتديات القرآن الكريم.

2 أثر النحاة في البحث البلاغي، د. عبد القادر حسين

"إن النظام اللغوي للعربية يحافظ على رتبه الخاصة بالنسبة لأجزاء الكلام طبقاً لأصل الرتبة في اللغة العربية التي تقوم على أساس أن يتقدم الفعل عن فاعله ومفعوله والمبتدأ عن خبره ولا تتغير مواقعها إلا بموجب قواعد خاصة يسمح لها النظام اللغوي لتغير الوظيفة النحوية كقواعد التقديم والتأخير الذي يفرضه المقام، وكل تغير على مستوى الترتيب يترتب عليه حتماً تغير في المعنى، فينتقل من مستوى إلى آخر" ¹. ومن هذا المنطلق حرص عبد القاهر الجرجاني على المعنى النحوي في فصل القول في التقديم والتأخير.

"هذا باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه و يلطف لديك موقعه ثم تنتظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدم شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان" ². يستنتج من هذا القول: إن التقديم عند الجرجاني نوعان: تقديم على نية التأخير، وتقديم لا على نية التأخير.

أ - تقديم على نية التأخير: كتقديم الخبر على المبتدأ، والمفعول على الفاعل كقولك: "منطلق زيد: ضرب عمرو زيد. فالخبر منطلق لم يتغير حكمه الإعرابي رغم تقديمه والمفعول عمرو لم يتغير وصفه الإعرابي رغم تقديمه .

ب - تقديم لا على نية التأخير: " وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خبراً له، فتقدم تارة هذا على ذاك، وأخرى ذاك على هذا" ³.
مثالين على هذا:

1 - جملة إسمية: محمد رسول الله ::::: رسول الله محمد

مبتدأ خبر مبتدأ مقدم خبر مقدم مبتدأ مقدم

2 - جملة فعلية: ضرب عيسى موسى

فعل فاعل مفعول به ضربه مقدم فاعل مؤخر

1 عبد القاهر الجرجاني "دلائل الإعجاز" ص 94

2 المصدر نفسه، و الصفحة نفسها

3. عبد العزيز عتيق " علم المعاني " ص 07

من خلال المثالين، يتضح جلياً، أنه يمكن التقديم على التأخير، أو يمكن التأخير على نية التقديم و ذلك أن هنالك بعض المواقف التي تتطلب هذا، ونقصد بالمواقف سياق الحال أو المقام، أو مقتضى الحال على أساس أنه - لكل مقام مقال - ثم إن الفائدة المشير ذا تقديم تكون أكبر من فائدة المستبد، أو درجة ما حقه التأخير تكون أكبر شأناً من درجة الواجب لتقديمه كما في قوله تعالى: { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } [فاطر:28].
فالملاحظ أنه لفظ (الله) لفظ الجلالة في محل نصب مفعول مقدم جوازاً، لأن الخشية تكون من الله، أما لفظ (العلماء) فهو فاعل مرفوع مؤخر جوازاً المقدم هو (الله).
من خلال هذا يتضح لنا على سبيل في جعل التقديم وترك التقديم سواء، أن يدعي أنه كذلك عموم الأحوال، فأما أن يجعله بينَ بين فيزعم أنه للفائدة في بعضها، وللتصرف في اللفظ من غير معنى في بعض، فمما ينبغي أن يرغب عن القول به.

■ تقنية التقديم والتأخير في الكتاب:

معلوم أن اللغة تؤدي وظيفتها بتركيب المفردات وتركيبها، لتبلغ غايتها في الإفادة وهي الإفهام، فالمنطقي أن تقوم العبارة على ترتيب الكلمات، حيث يعبر الترتيب بأن واحد عن حاصل الفكرة وتحليل القول مهما كانت اللغة التي يتم فيها هذا الغرض(1).

وبعبارة أكثر وضوحاً فإن "رتبة كل كلمة داخل التركيب تؤثر مكانتها الخاصة بها"(2)، وأي إخلال بهذا النظام يؤدي -لا محالة- إلى عدم تحقيق الكلام لغرضه المتمثل في التبليغ، وقد عبر عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) في نظريته "النظم" عن الترتيب والائتلاف الحاصل بين أجزاء الكلم بقوله: "لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبني بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك..."(3).

يستنتج من كلام الجرجاني أن ترتيب المفردات ينفخ فيها الحياة لتعبر عن مكنون الفكر، وما يختلج في الخواطر، وليست اللغة في حقيقة أمرها إلا نظاماً من الكلمات التي ترتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً تحتمه قوانين معينة لكل لغة(4)، وعلى حد تعبير "هلمسليف": "إنه ليس هناك لغة تتميز بحرية ترتيب عناصرها، فكل عنصر تتحدد علاقته بالذي يجاوره"(5)، والتقديم والتأخير أحد تقنيات التبليغ التي يستطيع المتكلم أن يحدث بها تغييراً في بنية الكلام لتحقيق غرض جديد، إذ إن "أي تعديل في نظام تركيب الكلمات في التركيب يحدث تغييراً في المعنى"(6).

ويكون سببويه قد أدرك بذكائه الحاد وملاحظته الدقيقة لاستعمال كلام العرب، أن نظم الكلمات في التركيب هو قوام النحو، ولعل ذلك أولى "مراعاة تأليف الكلام وحسن النظم

(1)- تاريخ علم اللغة، ص: 147

(1)- Language, E. Sapir, New York, 1921, p: 109

(1)- دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر به عبد الرحمن الجرجاني (ت471هـ)، تصحيح وتعليق: السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1978، ص: 44

(1)- من أسرار اللغة، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط5، 1975، ص: 295

(1)- ينظر: المنهج الوصفي في كتاب سببويه، ص: 282-283

(1)-Discoursing Grammar, p: 05

(1)- أثر النحاة في البحث البلاغي، د. عبد القادر حسين، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د.ط، 1976، ص: 80

(1)- Introduction Reading on Language, p: 149

القائم على توخي معاني النحو" (7)، عناية شديدة، ويعرف التقديم والتأخير في الدرس اللغوي الحديث بالتحويل الموضوعي "Local Transformation" (8)، وقد عول عليه سيبويه ليحقق أغراضا كثيرة أهمها: العناية والاهتمام، لذلك يقول: "كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم" (9).

والواقع أن الشواهد التي ذكرها سيبويه عن التقديم والتأخير كثيرة جدا، يأتي في مقدمها الشاهد القرآني الذي كان نصيبه في هذه القضية، ثمان آيات؛ ست آيات قرآنية (برواية حفص عن عاصم) وقراءتين أخريين، إحداها متواترة والأخرى شاذة (10)، وثانيها الشعر العربي الذي بلغ نصيبه خمسين شاهدا (11)، أما الشواهد النثرية التي استشهد بها لتقوية أحكام الوجوب والجواز، فقد بلغت تسعا وعشرين شاهدا، كلها لم يصرح فيها باسم القبيلة التي قالتها (12)، عدا المثل: (ما مُسِيءٌ مَنْ أَعْتَبَ) الذي ذكر قبله الفرق بين (ما) في لغة أهل الحجاز، و(ما) في لغة بني تميم من خلال الآية الكريمة: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ آية (13) سورة النعام مستشهدا على جواز تقديم الخبر على المبتدأ بعد (ما) في لغة بني تميم، لا في لغة أهل الحجاز التي لا يجوز فيها ذلك (14).

ولقد أورد سيبويه هذه الشواهد ليبين للمتلقي أثر التقديم والتأخير في أجزاء الجمل والتراكيب في تغيير معنى الكلام، لذلك يتوجب على المتكلم -كما يرى سيبويه- أن يتوخي الدقة في اختيار النسق التعبيري لكي يطابق المعنى الذي أراده (15)، ففي باب "أم" التي تأتي في الاستفهام، يفرق سيبويه بين أن يلي همزة الاستفهام اسم أو يلياه فعل، ووجه

(7) - الكتاب، ج2، ص: 35

(8) - التقديم والتأخير في بناء الجملة العربية عند سيبويه في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، د. أشرف السعيد السيد خضر، الصحوة للنشر والتوزيع، حلوان،

مصر، ط1، 2009، ص: 66

(9) - التقديم والتأخير في بناء الجملة، د. أشرف السعيد السيد خضر، ص: 121

(10) - نفسه، ص: 121

(11) - سورة يوسف، الآية: 31

(12) - ينظر: الكتاب، ج1، ص: 59

(13) - أثر سياق الكلام عند سيبويه، ص: 24

(14) - الكتاب، ج3، ص: 169

(15) - نفسه، ج3، ص: 17

الصواب في ذلك لا يتوقف على قاعدة نحوية بخبر مجيء الاسم دون الفعل أو العكس، ولكن الجواز يعتمد على غرض المتكلم، فالقول في الشاهد: "أزیدُ عندك أمَ عمرو؟" و"أزیداً لقيت أمَ بشرًا؟" (16)، يختلف في معناه عن قولنا: "أضربت زیداً أمَ قتلته؟" (17)، ففي الشاهد الأول غاية الاستفهام معرفة مَنْ مِنْ

الرجلين موجود عند المسؤول؟، فحسن هاهنا تقديم الاسم: ".. فأنت مُدَّعٍ أن المسؤول قد لقي أحدهما أو عنده أحدهما، إلا أن علمك قد استوي فيهما لا تدري أيهما هو..." واعلم أنك إذا أردت هذا المعنى فتقديم الاسم أحسن، لأنك لا تسأله عن اللقي وإنما تسأله عن أحد الاسمين لا تدري أيهما هو"، أما في الشاهد الثاني فإن موضع السؤال هو الفعل الذي صدر من المسؤول؛ ولذلك قدم الفعل، "قالبدء هاهنا بالفعل أحسن، لأنك إنما تسأل عن أحدهما لا تدري أيهما كان، ولا تسأل عن موضع أحدهما... كأنك قلت: أي ذلك كان بزید؟" (18).

ويشير سيبويه إلى علة لجوء العرب إلى تقنية التقديم والتأخير في الكلام فيقول: "وذلك قولك ضرب زیداً عبد الله... وهو عربي جيد كثير، كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم" (19).

غير أننا نجد أن عبد القاهر الجرجاني قد انبرى لانتقاد من ذهب إلى أن هذا الباب لا يقع إلا بهدف العناية والاهتمام، ويقصد بذلك سيبويه، يظهر هذا الانتقاد في قوله: "واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئاً يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام، قال صاحب الكتاب وهو يذكر الفاعل والمفعول: كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم بشأنه أعنى وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم، ولم يذكر في ذلك مثلاً... وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي

(16) - الكتاب، ج3، ص: 171

(16) - نفسه، ج1، ص: 34، وينظر كذلك: ج1، ص: 40-45-56-80، وج2، ص: 143

(16) - الدلائل، ص: 84 وما بعدها

أن يقال إنه قدم للعناية ولأن ذكره أهم، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية، ولمكان أهم، ولتخليهم ذلك قد سعد أمر التقديم والتأخير في نفوسهم وهونوا الخطب فيه... (20).

وتقنية التقديم والتأخير حسب الجرجاني -كما سبق الذكر- "باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتّر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ثم يبين أنه يقع على وجهين، فهناك تقديم يقال إنه على نية التأخير وذلك في كل شيء أقرته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ، والمفعول إذا قدمته على الفاعل، كقولك: "منطلق زيد"، وضرب عمراً زيداً، معلوم أن "منطلقاً" و"عمراً" لم يخرجوا بالتقديم عما كان عليه من كون هذا خبر مبتدأ ومرفوعاً بذلك، وكون ذلك مفعولاً ومنصوباً من أجله كما يكون إذا أخرت، وتقديم لا على نية التأخير، ولكن على أن تنتقل الشيء عن حكم إلى حكم وتجعله باباً غير بابيه، وإعراباً غير إعرابه" (21).

والملاحظ أن هذا التعريف للنوع الأول من التقديم والتأخير، قد لخصه سيبويه في عبارته الأكثر إيجازاً وبلاغة، حينما قال: "فإن قدّمتَ الفعل وأخّرتَ الفاعل جرى اللَّفْظُ كما جرى في الأول، وذلك قولك: ضرب زيداً عبدُ الله، لأنك إنما أردت به مؤخرًا ما أردت به مقدماً" (22)، وإذا كان عبد القاهر الجرجاني يخالف سيبويه في بعض النواحي، فلأن ثمة بُوناً شاسعاً بين المنهج النحوي اللغوي الذي اتبعه سيبويه في الكتاب، ومنهج الجرجاني البلاغي الذي هيمن على كتابه دلائل الإعجاز، ولذلك وجدت مسائل أثارها الجرجاني تختلف في بعض النواحي عن تلك التي عالجه سيبويه، وإن كان هذا لا ينفي تأثير الجرجاني بما جاء به صاحب الكتاب (23).

يفهم من هذا الكلام أن الجرجاني كان ينتصر لمعاني النحو الداخلية التي تمنح الكلام جودته وميزته، فيكون بذلك صحيحاً لا فاسداً، "فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة النظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك

(20) - الدلائل، ص: 83

(20) - الكتاب، ج 1، ص: 34

(22) - أثر سياق الكلام عند سيبويه، ص: 90

(22) - دلائل الإعجاز، ص: 66-67

(22) - أثر سياق الكلام، ص: 92

المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه... (24).

أما سيبويه، فقد كان مبدأً تمسكه بقواعد اللغة من باب الالتزام بسنن العرب في الكلام، فأجراها كما أجرتها العرب، ولذلك وجدناه في كثير من المواضع يجيز بعض التراكيب أو يمنعها لأسباب لا علاقة لها بالنحو بما هو أحكام إعرابية، أو قواعد ترسم حدود التأليف من تقديم وتأخير أو تعريف وتكثير وما سوى ذلك، جاعلا الفيصل في ذلك طريقة العرب في الكلام، خاصة إذ أمن اللبس، وفهم المخاطب مقاصد المتكلم (25)، ثم إن سيبويه قد وفي مسألة التقديم والتأخير حقها من الشرح والتوضيح والدليل على ذلك عدد الشواهد التي أوردها على الجواز والوجوب والمنع.

وختاما نشير إلى أن عبد القاهر الجرجاني قد أسهب هو الآخر في عرض الوسائل الإجرائية التواصلية المتمثلة في التقديم والتأخير، الفصل والوصل، الحذف والقصر بإنما، والخوض في هذه المباحث يتسع ولا ينتهي، إذ كل تقنية يلزمها بحث مستقل، ولذلك اقتصرنا على نموذج واحد عند الأعلام موضوع المقارنة مع سيبويه لتأكيد تأثيرهم بكل ما جاء في الكتاب إن اعترافا أو إنكارا منهم بمدى هذا التأثير الذي كشفت عنه تلك الشواهد المأخوذة من الكتاب.

وأخيرا؛ أعترف أن الذين تأثروا بما جاء في الكتاب لا يتسع المقام للإحاطة بهم كلهم، لذلك اقتصرنا الإشارة إلى بعض الأعلام الذين اشتهروا في المعاجم وفي ميدان اللغة والنحو والبلاغة والأصوات، وهم: الزبيدي، الزمخشري، الجاحظ، ابن جني وعبد القاهر الجرجاني، وعملنا هذا ليس رغبة في مقارنة سيبويه بمن تبعه أو تأخر به، ولكن بغية الوقوف على جملة من الآراء والانطباعات، وكشفا عن سحر ذلك الكتاب الذي مهد الطريق لمعظم اللغويين والبلاغيين والباحثين قديما وحديثا.

